يوسف ضنانة

عنقود دابش

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

قصص

عنقود حامض

قصص

يوسف ضمرة

الطبعة الأولى ١٩٩٣م
الحقوق محفوظة لوزارة الثقافة
هاتف ٦٣٦٣٩٢ ص.ب ٦١٤٠
المملكة الأردنية الهاشمية - عمان

طباعة وتنفيذ مطابع الدستور التجارية
عمان - ص.ب ٥٩١ هاتف ٦٦٤١٥٣

تصميم الغلاف: زهير ابو شايب

منشورات وزارة الثقافة

عنقود حامض

قصص

يوسف ضمرة

المملكة الأردنية الهاشمية - عمان - ١٩٩٣

ق
يوس يوسف ضمرة
عنقود حامض/ يوسف ضمرة ـ عمان: وزارة الثقافة، ١٩٩٣
( ) ص
ر.أ(١٩٩٣/٢/٩٤)
١ ـ القصة العربية أ ـ العنوان ب ـ السلسلة
(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

المحتويات

★ زمن الرائحة ٧
★ نـوافـذ ١٦
★ نبتة مشاغبة على جدار غرفة مهملة ٢٣
★ حامي بارد ٤٠
★ اخر هزائم الطيب ٤٥
★ الأب الذي لم ينجب أحداً ٤٩
★ السلك ٥٧
★ السيدة ٦٥
★ الجواد البري ٨٥
★ صحن اللّقى ٨٩
★ الرؤوس ١٠٠
★ يحيى والاسئلة الاولى ١٠٢
★ عنقود حامض ١١٥
★ منشورات وزارة الثقافة ١٢٢

كي يدبرا الأمر . ألقت بحقيبتها على مقعدٍ وهرولت إلى الحمّام . تبعها وهو يؤكد انه فتشه من قبل . بدا أنها لم تسمع . وربما لم تكترث . راحت تفتش جيداً ، وهو يتكىء براحته على أكرة الباب . رفعت رأسها كفرس . مدّت يدها وجذبت سلسلة (النياغرا) بقوة . اندلق الصوت والماء . ولّته ظهرها . ارتفع الماء في الخزان العلوي الصغير . وظلت الرائحة . هرولت ثانية فتبعها إلى المطبخ . انحنت وراحت تفتح الخزائن الخشبية والأدراج بعصبية متسارعة . فكر أن يفعل شيئاً . أي شيء . لم يجد سوى الوقوف . فرغت . دارت حوله وحولها . طارت إلى غرفة النوم . ابتسم ولم يتبعها . اكتفى بالجلوس في الصالة الواسعة . خرجتْ مترنحة ، تشي حركتها بالأسى . زفرت

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

ووجهها يتشكل خيبة . نهض . اقترب منها ببطء . ثم جلسا معاً على الأريكة الرخوة . مدّت رجليها ، وأراحت رأسها . أغمضت عينيها لحظة ، ثم نفرت واعتدلت ووضعت راحتيها على ركبتيها . سألته بعينيها فابتسم أخيراً قال في هدوء (قد لا تكون هنا . لننتظر) .

كانا واثقين من أنها في البيت . فقد لاحظا أنها تشح كلما تجاوزا العتبة خارجاً . اقترح عليها أن يتناولا الغداء خارج البيت . فعلا ذلك . تمشيا حين راحت ظلال ما بعد الظهر تغسل المدى الساخن . تعبا قليلاً . كان المساء هادئاً يجيء من كل مكان . وفي الأعماق يطلع الرحب والأمل الرخو ، يكبران مع كل خطوة في اتجاه البيت . وصلا . أدار المفتاح ببطء ،

وهو يحس بالرائحة تعبره على استحياء . نظر إليها . كانت تأخذ أنفاساً متلاحقة ، لكي تتأكد من حاستها المستهدفة . دفع الباب فهاجمه العفن . ارتمى على المقعد المجاور ، بينما ركضت في اتجاه الحمام ، وهي تضع راحتها على فمها لكتم ضجة القيء المفاجيء . أشعل سيجارة ، وهو يتلفت كالمذعور حوله . علا صوتها فذهب إليها . كان جسدها ينتفض ، ووجهها في أوج احتقانه ، وعيناها جاحظتين برعبٍ يشبه الموت . حط في روحه طائر الأسى . قال كلمات مضببة . سألها بوضوح إن كانت بحاجةٍ إلى طبيب ، فنفت . راح يضع راحته على مواضع كثيرة من جسدها المرتعش . دقائق ثم هدأت ، ونظرت إليه . أطالت ذلك حتى اتهم نفسه . سألها فلم تجب ظلت

عيناها جاحظتين ، واستقام الجسد . أزاح يده بهدوء. غسلت وجهها بالماء البارد . مدّت يدها نحوه فتنحى ، فمرت . كان وجهها شاحباً تماماً . تعلقت أسفل ذقنها قطرة ماء كبيرة ، وجرى خط دقيق من أسفل فودها المحاذي لوجهه . رفعت ذراعيها . ضغطت خديها براحتيها ، ثم صعدت بأصابعها إلى عينيها ، وجبينها ومرّ الإبهامان خلف الأذنين ، مسّدت شعرها فابتل قليلاً . تبعها إلى غرفة النوم في هدوء . سألها في الطريق إن كان الأمر على ما يرام . لم تقل شيئاً . استلقت على السرير باسترخاءٍ غير مكتمل . خيّل إليه بعد لحظات أنه يرى بخار النعاس الدافىء يتصاعد منها . لكنها انفجرت باكيةً بصمتٍ إلا ارتجاف الجسد أو ارتجاجه بشكل أدق . ضمها فخرج صوتها متقطعاً

بدت كما لو أنها ترغب في قول كلمةٍ فيخذلها اللسان عدة مرات ، ثم ضاقت المسافة بين الشهقات ، ضاقت حتى تلاشت ، وشبّ حريق بكائها فشدّها إليه . خالها بالوناً ينفث الهواء . لكنها توقفت عن البكاء فجأة ، ونظرت إليه أشفق عليها . قال بحنان (لسنا مضطرين للنوم في البيت . نقضي الليلة في بيت أمك . أو في بيت صديق ما . الأمر سهل كما ترين ، حتى لو اضطررنا لغرفةٍ في فندق) . راقت له الفكرة (نعم فندق هل تذكرين ؟) وضحك : (شيء جميل . ها ؟ هل تذكرين قبل خمسة أعوام ؟ أعنى ليلاتنا الثلاث ؟ الأولى تحديداً ؟) . وتحسس بأصابعه زندها الأيسر . إنفجرت ثانية بالبكاء . راح يشعر بالغضب الذي شبّ فيه من أول نشقة عفنة . (هذا كثير . كثير جداً .

والمسألة أبسط مما تظنين) . ابتعد قليلاً وأشعل سيجارة (نبقى هنا حتى الصباح . نحتمل ذلك كيفما اتفق . سأدخن الكثير . لا . سنسكب زجاجةً كاملةً من العطر في غرفة النوم ، وأخرى في أرجاء البيت . والصباح رباح . أنا واثق من أننا سنذكرها غداً كحلم تافه) . خرج إلى الصالة ، ارتمى على مقعد ، وراح يحاول تشكيل خواتم زرقاء بدخان سيجارته ، رافعاً سيجارته إلى الأعلى بزاوية حادة مع أنفه ربما كانت الرجفة الحقيقية في يده عاملاً مساعداً . أنهى سيجارته ، فأغمض عينيه . استرخى وحاول النوم . نام فعلاً . استيقظ قبل موعده اليومي . أعد القهوة ، ودخل إلى غرفة النوم على رؤوس أصابعه . اقترب منها . انحنى قليلاً . بدت له وكأنها ما كفّت عن البكاء

بعد . جفناها منتفخان . انحنى أكثر . اتضح اللون الأزرق الداكن تحت عينيها . حدّقت إليه . حاول أن يبتسم وهو يلقي تحية الصباح ، لم تجبه سوى بإغماضة بطيئة . مدّ يده بفنجان القهوة ، لم تتحرك . تحركا بعد عشرة أيام نتنة ، فتشا المدينة كلها . عثرا على بيوت كثيرة . لم تكن للأجرة أي قيمة . وحدها الرائحة . كل بيت دخلاه كان يستقبلهما بالرائحة . هي ذاتها . إلى أن عثرا على البيت الأخير . فتشاه جيداً ، متراً متراً ، زاويةً زاوية ، إلى أن تأكدا أنهما غير مخدوعين . طارا بجنون إلى الشارع ، ضحكا حتى أن كثيراً من الناس التفتوا إليهما ولم يكترثا . عرّجا إلى معظم الأصدقاء لتعميم الفرح . واستعدّا للاحتفال في البيت الجديد ، مع المساء الاول .

كان في الأعماق ذلك الخوف الغامض . الخوف من طوفان الرائحة المفاجىء ليلاً ، أو في أي وقت . رتّبا الأمتعة القليلة مع غياب الشمس . كان الواحد منهما يأخذ أنفاساً متلاحقة سراً . واطمأنا أخيراً . كبر الفرح عند منتصف الليل . صرخ الجسدان رغبة وتعبا تجاهلا التعب ، واستلقيا معاً ، بعد انحباس دام عشرة أيام . وفجأة ، حطت الخيبة فيهما . سكنت الأنفاس والحركات . تمدد كل منهما على ظهره ، وحدّقا في عتمة السقف . أشعل سيجارة ونفث الدخان بأسى . قالت (هل شممت شيئاً ؟) قال : (لا . وأنت ؟) قالت لا . وبكت بصمت . ثم أدارت ظهرها ونشقت . وأدار ظهره وغفا .

نـوافـذ

- ١ -

المكواة

هكذا لملمتني النافذة .. وكنا في أول الصيف !

يوماً بعد يوم ، أجمع أبعاضي من عوالم المطبخ ، وغرفة النوم ، والمكتب ، وعن المقعد المقابل لشاشة التلفاز ، قبالة النافذة التي يفصلها عني خط أفقي قصير لشارع ضيّق .

أكثر من ثلاثة أشهر ، وأنا العسكري الذي لا يغلق عينيه ، ولا يحرفهما عن الهدف المرصود .

كانت المكواة مثلثاً متساوي الساقين ، وكان

سطحها نظيفاً وصقيلاً كمرآة . أكثر من ثلاثة أشهر وهي في مكانها ، حيناً تشبه صدر دجاجةٍ مذبوحةٍ مجمّدةٍ ، وحيناً آخر تشبه مقدمة سفينة ترتفع كثيراً فوق الماء .

حدّدتُ المسافة التي تفصلها عن طرفي النافذة وكان هذا التحديد عاملاً مهماً في تعاظم إحساسي بالقهر !! فالمكواة لم تتحرك يميناً أو يساراً ملليمتراً واحداً . ذاك يعني أن اليد التي انتظرتها لا تجيء ! ولكن ، لماذا كانت المكواة في البيت ؟ ولماذا في النافذة؟ هي ليست قطعةً أثرية على الإطلاق ! فلماذا كانت هناك بلا يد تمتد إليها ؟ آه ! جميل أن يكون لنا أصدقاء مثلها ! لا تغضب ، لا تتأخر في المواعيد ، لا تفشي سراً لأحد .

تفشي سراً لأحد .

ولكن اليد الجميلة جاءت ، امتدت بلا حرج أو تردد حملتها وذهبت . رحت انتظر عودتها كي أرى وجه امرأةٍ بالطبع ، وجميلةٍ أيضاً ، لأن اليد كانت ناعمةً وبيضاء .

غابت اليد عن مخيلتي التي كبرت فيها المكواة ، ثم عادت بعد أيام ، ففرحت . ولكني فوجئت بكل ما في أعماقي يتضاءل تدريجياً ، كبالون راح ينفث الهواء بلا توقف . حاولت نسيان ما حدث ، ولكن ! امَّحت تلك العلاقة العظيمة بيني وبين المكواة ، وتلاشت إلى الأبد !! .

ـ ٢ ـ

الراقصة

لم يكن لها وقت محدد !

رأيتها في الليل ، وفي الصباح ! وظهراً ذات يوم !

تظهر فجأةً ، وفجأةً تغيب !

أراها يوميا في أسبوعٍ ما ، وتغيب أياماً في أسبوعٍ آخر !

حين رأيتها أول مرة ، حاولتُ التقاط نغمة واحدة من الموسيقى التي ترافق حركات الجسد الفاتن .

أغلقتُ نوافذ البيت كلها باستثناء نافذتي . انتزعت (البطارية) التي تغذي ساعة الجوار ، فانكتمت تلك اللازمة المميتة – تِك . تِك – وبلا أي جدوى !

بعد أيام رحت أسمع توقيعات حارة ، كانت تتصاعد مني ! ودهشت لذلك الانسجام بين جسد الراقصة وموسيقاي ! ولكني ...اكتشفتُ بعد أسابيع كثيرة ، أن الموسيقى التي وصلت إليّ لاحقاً من النافذة ، حوّلت انثناءات الجسد الفاتن ، إلى حركات بلا أي ذرةٍ من السحر ، على الرغم من الانسجام الخارجي بين الحركات والصوت !! .

ـ ٣ ـ

(٠٠٠)

كانت مغلقة منذ اليوم الأول ، وظلت كذلك عاماً أو أقل قليلاً . تزوبعت خيالاتي يوماً بعد يوم .

ما مرّ يوم إلاّ واخترتُ شيئاً جديداً ، أو أضفتُ شيئاً ! إذا كانت النافذة لغرفة النوم ، فإن بابها الى يميني ، والسرير مباشرة أمامي ، وهو أبيض حيناً . والستائر بيضاء ، وربما كانت بنية غير داكنة . وإلى جوار السرير ، كومودينو بلون بني أكثر عمقاً من الستائر . وعلى الكومودينو زجاجة عطر أو اثنتان .

أما إذا كانت النافذة للمطبخ ، فان بابه يقابل النافذة . والخزائن الخشبية الى يميني . ولا أنسى

شيئاً على الإطلاق ! شمّاعة الملابس في غرفة النوم ، قميص المرأة المتعدد الألوان ، لون الضوء الخافت ، نباتات الزينة ، مائدة الطعام في المطبخ ، عدد الصحون عليها ، الشراب الملائم للطعام الشهي . ظلّ خيالي يقظاً بلا وهن : أغير محتويات الغرفة في لحظة واحدة !؛ أمحو ما أريد وأجيء بما أريد .

وعندما وقف (شخص) ما ذات يوم ، في النافذة التي فتحت ، رأيت أشياء كثيرة جداً !!

أغمضت عينيّ ، وحاولت ان أغير شيئاً ما . إلا أنني غرقت في الخواء الذي ملأ صدري !! وراحت عيناي تحومان بحثاً عن نافذة مغلقة !!!! .

نبتة مشاغبة على جدار غرفة مهملة

قديماً شعرت برغبة هزيلة في نبتة خضراء ، تتعربش عى حائط غرفتي والأشياء المتربة . كان ذلك عند رؤيتي لشغب كهذا في مكان ما ، ربما كان فندقاً أو بيتاً أو أحد ستوديوهات التصوير أو ... لكن رغبتي الهزيلة توّردت فجأة ، وراحت تمارس الشغب اليومي في داخلي ، بعد ان شعرت بما يشبه التماسك في العلاقة بيننا . أعني صديقتي الأولى وأنا . فقد تطرفت هذه الفتاة ، وراحت تفاجئني بين يوم وآخر في غرفتي المضطربة ، مثل أعماق شخص غير سوي . ثم زادت على ذلك في محاولاتها – قدر استطاعتها – ترتيب غرفتي وتحسين محتوياتها رغم صعوبة ذلك .

كانت العلاقة شيئاً غريباً وجديداً تماماً ، فأنا لم أفكر في ذلك يوماً ما ، ولم يكن لديّ ظلّ باهت للقائي بامرأة وأحاديث الحب والشوق ، كما لدى الآخرين من الأصدقاء والزملاء ، وظيفتي كانت البيدر الوحيد الذي أدور فيه ! كأنني وضعت قطعتين من الجلد القاتم على الجهة الخارجية لكل عين ، حتى لا أرى أي شيء خارج حدود البيدر ، أما أوقات فراغي فقد منحتُ دور السينما في المدينة حصة الأسد منها ، وتقاسمت المقاهي ما تبقي ، من خلال مشاركتي الآخرين في مختلف ألعاب الورق والنرد ..

لم أندم حين دفعت مبلغاً مرتفعاً – نسبة إلى راتبي الشهري – ثمناً للنبتة التي أريد وشعرت حينها بضرورة معرفة أدق التفاصيل من البائع ، فيما يتعلق

بنموها ورعايتها والشغب الذي أريده منها .

– متى أسقيها ؟

– مرة في الأسبوع .

– تعني مرة بعد كل سبعة أيام ؟

فضحك ، ولكني لم أشعرِ بالخجل والاضطراب ، لأنني أجهل ذلك حقاً .

– هل تحتاج إلى ضوء ؟

– قليلاً .

– وبالتحديد ؟

– ساعة من الضوء غير المباشر تكفي ، وتزيد .

– ألا تضرها الزيادة ؟

قال باسماً بسخرية تحاول الاختفاء :

- لا

- والهواء ؟ أعني هل تحتاج إلى هواء مباشر ؟

- ليس ضرورياً .

- والدخان ؟

- قال ، والصبر يشح من كلماته :

- أي دخان ؟

- السجائر مثلاً ؟؟؟

قال بسرعة

- الأفضل ألاّ تعرضها كثيراً إليه .

- هل تنصح بالامتناع عن التدخين في حضرتها ؟

أعني أليس ذلك أفضل ؟

ضحك وحرك يده دون أن أفهم حركته أو شيئاً منها ، فقلت :

– سأخفف الدخان على أي حال . ذلك أفضل لنا . أعني لي وللنبتة ، فأنت تعرف مضاره الصحية والمالية

– طبعاً ، طبعاً .

وبدت حركته تدعوني صراحة لمغادرة المكان ، ولكني تابعت :

– آه صحيح ، يقولون إن رماد السجائر مفيد لها مثل السماد . صحيح ؟

– لا .

– وحبوب الأسبرين ؟

أجاب ضاحكاً :

– حين يصيبها الصداع .

– ولكنهم يقولون ...

قاطعني قائلاً بشكل قاطع :

– لا أعرف .

قلت جاداً أكثر من السابق ، وأنا أشعر بحقي المطلق في أسئلتي :

– لكنك خبير في عملك ، وأنا لا أعرف شيئاً عنه .

ارتدت ملامحه كثيراً من الثقة والغرور :

– طبعاً طبعاً ، أعرف ذلك جيداً ، وأنت لك الحق . تصور أن كثيراً من الذين يشترون مني هذا النبات وغيره ، يعودون ليخبروني أن نباتاتهم ذبلت ثم

ماتت . هم المخطئون بالطبع ، لأنه كان عليهم أن يسألوني كيف يعتنون بها ، ولكن – الله وكيلك – كل واحد يحسب نفسه عالماً في كل شيء . وفي الحقيقة فأنت أول شخص يفهم ذلك جيداً .

شعرت بقوة موقفي ، وقلت بهدوء :

– ليس عيباً أن يسأل الإنسان عن الأشياء التي لا يعرفها .

قال بثقة أكبر :

– طبعا . ليت الآخرين يفهمون ذلك .

تابعت كالسابق :

– أحرار ... آه ، بالنسبة للأسبرين ، هل تنصحني بسؤال شخص آخر ؟

قال بثقته العالية :

– تسأل شخصاً آخر ، وأنا خبير منذ خمسة عشر عاماً ؟ كنت أداعبك فقط حين قلت لك " لا أعرف " والواقع ان الاسبـرين يفـيـد بعض الأنواع ، لكن هذه النبتة لا .

ارتحت لإجابته ، فسألت :

– والماء ؟

تبخرت معالم الغرور عن ملامحه ، وقلّص بسمته وهو يتحدث بغضب يتململ بين شفتيه :

– قلت لك أسبوعياً .

قلت ضاحكاً :

– صحيح ، لكني أعني كم تحتاج بالضبط ؟

– كأساً واحدة .

– صغيرة أم كبيرة ؟

– عادية .

– في كأس العصير أم الشاي مثلاً ؟

– العصير أفضل .

– أفضل من الماء .

قلتها بدهشة مفاجئة ، فصرخ بشكل مفاجيء :

– تريد أن تسقيها العصير ؟

– أنت قلت ذلك .

قال بصوت قوي :

– قلت فليكن الماء مقدار كأس من العصير .

– آه آسف ، حقاً آسف .

ارتخت ملامحه قليلاً ، لكنها تشنّجت أكثر

حين سألت :

– متى ؟

قال بهدوء رغم تشنجه الصاخب :

– هذا النبات ليس للبيع .

وأدار ظهره لي .

صرخت بغضب :

– كنت تسخر مني كل ذلك الوقت إذن ؟

أجاب بهدوء أيضاً ، لكنه يشي بجفاف الصبر

والاحتمال ، وعيناه تتقافزان في الاتجاهات كلها :

– كم مرة قلت لك أسبوعياً ؟

قلت بغضب كبير هذه المرة :

– إسمع . تظن أنني لا أفهمك ، لكن الحقيقة أنك أنت الذي لا تستوعب السؤال جيداً .

حدق إليّ مأخوذاً ، لكني تابعت :

– منذ المرة الأولى عرفت أنها تسقى أسبوعياً ، ولكن متى ؟ أعني في أي وقت من اليوم ؟

في الصباح ؟ الظهر ؟ العصر ؟ الليل ؟ الفجر ؟ الا تعتقد أن ذلك مهم لأجنبها الأذى ؟

قال بثقة مصدرها الغضب وليس المعرفة :

– في أي وقت . ليس هذا مهماً .

جاء دوري لضخ كمية أكبر من الثقة في أسئلتي :

– والسماد ؟ يقولون إن هناك سماداً كيماوياً سائلاً ؟

تناول أسطوانة صغيرة الحجم عن أحد الرفوف الخشبية . قدمها إليّ قائلاً :

– دينار .

هزّني ، لكني حافظت على توازني :

– ليس مهماً .

ارتاحت ملامحه قليلاً ، فسألت :

– كيف أفعل ؟

– عدة نقط تمزجها بقليل من الماء .

– أرجوك . كم نقطة بالضبط ؟

– بين خمس وعشر نقاط . لا فرق .

– ألا يوجد فرق بين هذين الرقمين يا رجل ؟

– سبع نقاط بالضبط .

– جيد ، جيد جداً . نعم هكذا أفضل ،

ولكن .... بالنسبة للماء ؟

رفع يديه ثم قال :

– أستغفر اللّه العظيم .

فهمت قصده فقلت موضحاً :

– أعني كمية الماء الممزوج بالسماد ؟

– مقدار ملعقتين .

– ملعقة صغيرة أم كبيرة ؟

– كبيرة .

– شكراً شكراً جزيلاً ، وأعتذر عن هذه الإطالة ، فأنت تعرف كل شيء .

شعر أنني انتهيت فاسترخى تماماً وقال :

– العفو . أهلاً بك في أي وقت ، مع السلامة .

حملت النبتة وأسطوانة السماد ، وخرجت . وكأني سمعته يتأفف أو يتأوه ، أو يقول شيئاً لم أميزه .

فجأة عدت .

شبك يديه خلف رأسه ، وقد اسودّ لونه تماماً ، وراح يحدّق إليّ في ذهول غريب .

قلت باسماً :

– نسيت أن أسألك عن نقلها . أعني هل أفعل بعد

حين ، وأضعها في إناء أكبر ؟ وأمزج ترابها الأسود ببعض التراب الأحمر مثلما يقولون ؟

– لا بأس ... ولكن حين تكبر .

– أيكون مناسباً حين يصبح طولها متراً أو أكثر ؟

– لا أكثر ولا أقل . حين تصبح متراً بالضبط .

– هذه مشكلة . هل أقيس طولها بدءا من سطح التراب أم من أدنى ورقة ؟

بهدوء كبير . وبرقة شاعرية شفافة ، وضع الإناء بين راحتيه ، ورفع النبتة عالياً كمن يريد أن يضع تاجاً على رأس أحد يقف أمامه – كنت وحدي أمامه طبعاً – وفجأة أرخى أصابعه فسقطت النبتة بين أقدامنا . صرخت ، فناولني نقودي على الفور ، لكني

شتمته فضربني . – تابع ذلك حتى قيام الساعة ، هكذا اعتقدت – .

كان طبيعياً أن أتغيب عن عملي لعدة أيام ، واعتبرتها مناسبة جميلة لقضاء وقت أطول مع صديقتي ، رغم جموح الوجع ، والزرقة الداكنة حول عيني ، والرضوض في مواضع متفرقة من جسدي

كان هناك يومان يفصلان بين موعدها وقيامتي الخاصة التي حدثت ، وخلال ذلك الفاصل جثم الانتظار ثقيلاً كخنجر على صدري ، وانتشرت ناره في غاباتي ، مما خفّف من حدة الألم الجسدي ، الذي استعاد نشاطه مع حلول الليلة الثانية ، وبرود حرارة الانتظار ، لأنها غداً ستجيء ولم تأت في ذلك اليوم .

نسيت آلامي ، وشعرت بالخوف عليها ، ثم جاء

اليوم الثاني والخامس والعاشر و ... وانتهت أيام راحتي التي اختفت خلالها الكدمات الزرق الداكنة حول العينين . عدت إلى عملي كأنما كنت في إجازة عادية تماماً ، وعدت إلى حياتي دون أي طارىء آخر ، سوى التقائي بها بعد وقت طويل إلى حدّ ما . كان اللقاء ذابلاً ، يكتسي صفرة تشبه لون الورقة التي انتهت مراسيم استعدادها للسقوط الأخير عن شجرة وصلت جذورها إلى الصخر السميك .

حامي .. بارد

أصبح الأمر مملاً ، وبلا أي إثارة . صحيح أنه استشارني ، إلاّ أن الصيغة كانت أقرب للأمر .فاختار الحزام والسقيفة ، وقرر ألاّ تستبدل الأدوار ، حتى لو عثرت على الحزام في الوقت المحدد .

كانت السقيفة مهدّمة ، محتشداً جوفها بالحجارة والأغصانِ اليابسة ، وشباك العناكب التي لم تستسلم أمام أطرافي ورأسي .

كان يلف الحزام كأفعى ، أعطيه ظهري ، فيدخل يمكث لحظات ثم يخرج ، فأبدأ .

قلت له إن ذلك صعب فأكد أن اللعبة في هذه الحال أجمل . وحتى لا أصغر أمامه ، فإنني لم أجهر

بخوفي من الأفاعي ، رغم أنني لم أدخل إلا واثقاً من لدغة مميتة . وعجبت لشجاعته ... كيف يمد يده في الجحور الغامضة ؟ كان دوري واضحاً : علي أن أعثر على الحزام . فإذا نجحت في الوقت المحدد ، فإنني سأعاقب صاحبي عدة جلدات على راحتيه ، واذا فشلت فإنه سيعاقبني بالمثل .

كان واضحاً بالنسبة لي أنني لن أجد الحزام ، رغم إرشادات صاحبي : حامي . بارد ... هو لا يرى يدي في عتمة السقيفة ، وبالتالي فإن (الحامي والبارد) يعتمدان على مكان وقوفي .

لا أذكر عدد المرات التي عوقبت فيها ، لكني واثق من تسرب قدرتي على احتمال عقابه .

قلت له ذلك أيضاً ، فأصر على المتابعة .

لم أكن أجازف بإدخال راحتي في أي جحر . كنت أوهمه فقط . أنقل جسدي بين حين وأخر ، وهو يُردد (حامي . بارد ..) ثم أخرج بعد عشر دقائق ، ليدخل . ثم يخرج ممسكاً بالحزام الطريّ .

عجبت لنفسي : كيف استطعت احتمال كل ذلك الرعب في السقيفة ، والعقاب خارجها ؟ وبدا لي أخيراً أن اللدغة التي ستصيبني ستنهي كل شيء . فإما أن أموت ، وإما أن أنجو . وفي الحالين فإنني واضع حداً لطقس الوجع .

فعلت ذلك ببطء ورعب ، تحسّست فوهة الجحر ، كما لو كانت سبابتي تلمس الزناد ، وفوهة المسدس في أذني . أحسست بلدغة مفاجئة . ما كان ذلك وهماً خطفت يدي ، وقفزت خارجاً . تحسّست إبهامي

الملدوغ باليد الأخرى ، فسقطت شوكة يابسة . عدت مرة ثانية وأنا أقل خوفاً . مددت يدي في الجحر ذاته. يساراً ويميناً وأماماً ببطء ... لم تكن هنالك أفعى . ولم يكن الحزام . مددت يدي في جحر آخر ، وثالث ، ورابع.. كان الخوف يقل جحراً فآخر . والجحور تقل إلى أن أفرغتها من غموضها . كان لا بد من البحث في زاوية أخرى . حركت جسدي فصاح (بارد) عدت فصاح (حامي) . كنت واثقاً من أنني لم أهمل جحراً واحداً ، إلا أنني قررت البحث مرة ثانية ، واستخدمت الراحتين . أيقنت أن الحزام غير موجود . حركت قدماً في الهواء فصاح (بارد) . نقلت جسدي كله وهو يردد (بارد . بارد ..) مددت يدي فجاء تني الصاعقة على الظهر . كنت أعلم أن هنالك نوعاً من الأفاعي الطائرة

قفزت خارجاً . حاولت الابتعاد عن السقيفة ، إلا أنني اصطدمت به . كان واقفاً والحزام في يده . حدقت إليه فابتسم .. أصبح الأمر مثيراً جداً ، وموغلاً في الغموض ..

آخـر هزائـم الطيّـب

يحكى ان" الطيب "مات عند الفجر ، وبالرصاص ! فهيّج موته البارد الحزن والأسئلة ! كان شاباً بسيطاً وصادقاً ! وكان " طيباً " حقاً .

قيل له في أول المساء ، إن الرقم السري في تلك الليلة خمسة !! ولم يكن الطيب في حاجة لأي تفسير . فحين يقول الحارس : أربعة ؟ يجيبه القادم : واحد.

وحين يقول الحارس : ثلاثة ؟ يجيبه القادم : اثنان ! وهكذا ..

خرج الطيب في تلك الليلة ، وعاد عشرات المرات . وكان عند عودته يضيف الرقم الصحيح ، للرقم الذي

يطلقه الحارس كسؤال .

ولم يحدث أي شيء غريب أو مفاجيء ، إلا عند الفجر !!

كان يفكر بعقل رائق ، عندما أمره الحارس بالوقوف ، فامتثل ! قال الحارس بثقة :

– خمسة ؟؟

فوجيء الطيب . وظن في البدء ، أن الحارس قد نسي (السر) تحت غيم النعاس في الفجر .. ثم خطر بباله أن الحارس أحب أن يداعبه ، كما يفعل الرفاق حين يغزوهم الضجر ! لكن الحارس جأر مرة أخرى :

– قلت لك خمسة ؟؟

فأجاب في هدوء

– هل نسيت الرقم ؟

– قلت لك خمسة ؟

وسحب أقسام سلاحه ، فاستقرت رصاصة في (بيت النار) ، والدهشة والخوف في رأس الطيب ! ...

– قلت لك خمسة ؟؟

وأطلق الرصاصة الأولى في الهواء

– خمسة !!

فاستقرت رصاصة الحارس الثانية في صدره !

وعندما سئل الحارس عما حدث .. ولماذا لم يترك للطيب شيئاً من الرقم السري ! قال بثقة لا تليق بغير البريء !!!

– لقد تركت له الصفر !!

لكن السؤال الصاخب ظل في الصدور .. هل أدرك الطيب ذلك ، ومات دون القبول بالصفر ؟ أم أنه لم يدرك من الأمر شيئاً فمات ؟! .

الأب الذي لم ينجب أحداً

لا يدعوه ، ولا يعرفه أحد إلا بالأب .

ذاك الماثل مثل شجرة يابسة ، والشاحب الوجه مثل مسلول عريق ، بدأ ذلك في نادي المخيم ، ثم تناثر حتى أصبح موجوداً في كل مكان ، دخل إلى البيت والتصق بلسان أبيه والآخرين . عبر إلى الحرم الجامعي ، فقاعة المحاضرات ، ثم الى حدود نفسه ، فأعماقه ، ثم .. أمّحى الاسم الحقيقي تماماً .

لا أحد يعرف كيف جرى ذلك ، فهو في الثانية والعشرين بعد ، ورغم أنه يحمل المفك الأصفر في الجيب العلوية للفيلدا العسكرية الخضراء ، إلا أن

أحداً لا يذكر أنه سحب سلاحه ذاك على أحد . لكنه دائماً (يسحب) لسانه الحاد كمقصلة ، ذاك الذي لا ينام حتى في النوم . (هو قال ذلك) . يوقظه إخوته من نومه وهو يلعن كل شيء حتى نفسه . ينثر الكلمات البذيئة في بقاع البيت .

أحدهم قال (الأب) ، فقيل (الأب) .

هو يقول : أنا الأب الروحي لكل ما هو جنوني وغير مألوف أو أليف ، أكره أبي جداً ، وعلانية ، وعلى رؤوس الأشهاد . ولماذا أحبه ؟ ذاك الذي يقذف بنصف دينار إلى جيبي كل يوم ، ويؤكد في كل آن أنني مبذر ، نصف دينار به أذهب إلى الجامعة ، وأعود كل يوم ، وبه أشتري علبة سجائر ، وأشرب الشاي . فهل أحبه ؟ بصراحة !!!؟ أنا لا أحب أحداً ،

لأن أحداً لا يحبني ، وهذه الفاجرة هي السبب . ويشير إلى ساقه اليمنى بأصابعها الخمس ، ويعضّ على شفته السفلى ، فيزداد وجهه شحوباً ، وتتسع الفجوتان في خدّيه ، ثم يتساءل في أسى : لماذا ؟ لماذا أنا ؟ انظروا ويشير إلى عينه اليمنى التي تنحرف قليلاً إلى يمينها ، وانظروا هنا ويضغط بإبهامه وأصابعه الأربع الأخرى على خديه ، ثم يصرخ وهو يشير الى ساقه : وهذه الفاجرة ؟؟؟ إذا قلتم إنّ الحياة رديئة فأنتم لا تفهمون . نعم ، أنا الذي يقول ذلك !!! إنها جميلة ، لكن الرديء هم الناس . كيف تكون الحياة جميلة، والناس لا؟ هذه هي المشكلة التي أعيشها كل يوم وفي كل مكان . تصوروا أن أبي كان السبب الوحيد لتأخري فصلاً كاملاً في الجامعة ،

أعني الفصل الأخير تحديداً . فمنذ اليوم الأول في دراستي ، إلى ذلك الفصل الأخير ، تغير كل شيء . أربع سنوات تكفي لتغيير الدنيا وتزيد ، إلاّ نصف الدينار الذي سيّجه أبي طيلة السنوات اللواتي ذكرت . جرى ذلك في موسم الحج . تذهب الباصات إلى مكة وتدبَّر أيُّها (الأب) أمرك !!! ففعلت . كنت آخذ نصف الدينار في الصباح وأذهب إلى النادي . ألعب البلياردو ، والنرد . أشرب الشاي حتى أنتفخ . آكل ساندويشة ظهراً ، وأخرى في المساء ، عندما تتلقفني إحدى زرائب السينما في المدينة ، إلى أن اكتشف أبي ذلك يوماً ما ، فضربني ولم أفاجأ ، كنت أعرف أنه سيفعلها في أي مكان ، ألم أقل إنه لا يحبني ؟ ألم أقل إنّ أحداً لا يحبني ، وإنني لا أحب أحداً ، لكن

إحدى الفتيات قالت : إن (الأب) يحبها ، وحين سمع (الأب) ذلك استوقفها أمام الطلبة في الحرم الجامعي . سألها إن كان صحيحاً ما قيل ، فاحمر وجهها ، لكن ذلك ، لم يكن كافياً بالنسبة له ، فأصر على سماع إجابةٍ واضحة ، قالت بخجل :

– أنت تنظر إليّ كثيراً .

رفع يده إلى السماء ، ثم كادت قبضتاه تلامسان صدرها حين صرخ :

– أنت مجنونة . مجنونة . تماماً ، ألا ترين أنني أحول ؟ صمت لحظة ثم قال ضاحكاً :

– أنا الوحيد من يتكلم .. الوحيد الذي يملك (نسختين) من كل ما حوله . إنه زمن الطوفان ، وأنا

نوحه .

ومضى ، لكن عينيها اللتين حدق إليهما طويلاً ، وعينيه على وجهٍ آخر في تلك اللحظات ، ظلتا محفورتين في رأسه " جميلة وحق اللّه " ، هذا ما قاله لنفسه ذلك المساء ، وفي اليوم التالي ، استوقفها ، فأصيبت بالخوف ، لكنه قال باسماً في هدوء ووضوح:

– إسمعي .. هل تتزوجينني ؟

غرقت في صمت الدهشة التي استحضرها السؤال أمام آخرين .

– حقاً .. لو كنت في مكانك لرفضت .

ومضى .. وفي المساء نفسه ، قال في حلقةٍ من الوجوه المألوفة في النادي :

– بصراحة يا شباب !!! (الأب) مجنون ، لقد سأل واحدة من الجميلات الزواج .

أشعل سيجارته ، وهم يضحكون ، ثم تابع ضاحكاً :

– المشكلة ، أنها وافقت .. لا تتسرعوا في دهشتكم أو سخريتكم ، فقد وافقت أمام أكثر من شخص ، بل إنها شكرتني لأنني اصطفيتها دون غيرها ، وبكت لكن شرطها القاضي بالحياة في المخيم ، أفسد كل شيء .

في اليومين اللاحقين لم يذهب إلى الجامعة ، ولم يذهب إلى البيت . نام في النادي ، وفي المساء الثالث جاء والده ؛ ضربه فرد بشتيمةٍ بذيئة وبكى ، صرخ والده في غضب مرعب :

ماذا ينقصك يا ابن الكلب ؟

تمتم وهو يبكي :

أشياء كثيرة ياأبي ... كثيرة جداً يا أبي ... يا أبـــــــي ٠

السّـلك

أنا الذي قلت : "سأصعد "

وصعدت ..

كان عموداً من خشب ، قال الآمر إنّ علينا قطع سلك الهاتف . ربطت حزامي حول الساقين ، قليلاً أعلى من الساقين . قليلاً أعلى من الكاحلين . تناولت المقص ، وصعدت ، لم يكلفني بذلك أحد . أنا الذي قلت : سأصعد . كنا أحد عشر محارباً ، مدججين بالرغبة في نسف الجسر الصغير ، ذلك الممتد بين بقاعنا المعتمة ، والقرية المضاءة ، قيل : إن الدبابات ستعبر في تلك الليلة ، توقفنا عند العمود الخشبي . نظرنا فلمحناه ، لم اسأل نفسي كيف أبصرناه في العتمة !! كان جميلاً في وحدته ووضوحه ، لكني

غبطته لعدم إحساسه ببرودة الليل الخريفي المتأخر . أنا الذي قلت ... قفزة بعد قفزة ، من العتمة الى الضوء ، حتى وصلت ، وهناك رأيت . لا أدري لماذا صعدت هكذا !!! لماذا كان وجهي ناحية القرية ؟

ربما كنت مدفوعاً بالرغبة الغامضة في الضوء ! لم أر مشهداً كهذا من قبل ، بيوت قليلة مضاءة ، وطريق واحدة توزعت فيها أضواء بلا ترتيب ، حيث مال بعضها الى صفرة الموت ، وماتت مصابيح أُخر . فجأة أدركت أنني مرئي تماماً .

واضح بلا أي تردد . كما قد يحدث للسلك ، وشعرت بالخوف . كنا علمنا أن رشاشاً ثقيلاً يربض على السفح المقابل ولا تزيد المسافة الأفقية بينه وبين الجسر على مائة متر فقط، يا إلهي ... ! لم أكن قد

تفحصت السلك بعد . مددت يداً مرتعشة ، ثم أعدتها . سمعت الآمر يهمس : بسرعة . تساءلت عن إحساسه في تلك اللحظه ، حتماً كان مختلفاً لأنه ما كان في الضوء مثلي . ولم يكن يرى ، شبهت نفسي بالحجر الذي يقذفه الصبي الى باب (المدبرة) عما قليل يفر الرصاص من بيوته الباردة . ماذا لو تحركت في موقعي ؟ لو أدرت وجهي ؟ سيجيء الرصاص من الخلف . آه .. لا أظن أن هناك من يعي الفرق إلا اذا صعد .. رفعت يدي مرة أخرى ، وعيناي تطوفان حول الأضواء وبينها ، كفراشتين محمومتين في لحظة الوصل ، عجبت للشعور المزدوج : المتعة والرعب ، وبخاصة حين رأيت جيباً عسكرياً يذهب في بطء الى الجهة الأبعد للطريق . كان سلكاً عادياً ، دلت برودته

عليه . أبعدت يدي وأنا اترقب انفجاراً يفتّتني بشكل يعز على أي خيال ، كان السلك في حالته يذكرني بمصائد المغفلين في الحرب .. سلك يمتد بين شجرة وأخرى . بين شيء وآخر . يتصل في أحد طرفيه بحلقة قنبلة أو بلغم – مضت اكثر من عشر ثوانٍ بلا انفجارات أو رصاص . همست مؤكداً أن السلك عادي ، لكن الآمر لم يبدل حرفاً : بسرعة .تحسست السلك مرة أخرى . ومرة أخرى أكدت أنه عادي ، فقال الآمر : اقطعه . هبطت مسافة متر أو أكثر ، وهمست :

– ألا يكون ملغوما ؟

فقال بحدة

– انزل

فنزلت ، ثم قلت :

– مصيدة !! كنت مكشوفاً لكنهم لم يطلقوا النار . لماذا لم يطلقوا النار ؟ ولماذا يمتد هذا السلك العادي هنا ؟

سألني بهدوء :

– هل أنت واثق من أنه عادي ؟

قلت بوضوح ويدي على صدري :

– أتحمل مسؤولية ذلك .

رفعت رأسي ... سكن الخوف ، لكن الخيبة عصفت... لم تكن الأضواء وأنا مرئي هي الآن مجرد أضواء عادية .. من الصعب أن أفسر الأمر ، خطا الآمر فانتبهت ولم ألحظ . توقف بعد عشرة أمتار ، ثم

عاد ، توقف تحت العمود ثم خطا ، وتوقف بعد عشرة أمتار في الجهة الأخرى ، ثم عاد اليّ وقال بصرامة :

- اصعد

فصعدت

كانت الرغبة الغامضة أقوى من الخوف ، استغرقني الأمر بضع ومضات ، لمحت الجيب عائداً في الطريق ذاتها . وقبل أن تمتد يدي حوالي السلك سمعت همس الآمر . كدت أقول له إنني خائف ، وإنه لا شبيه لي في انتظار الموت ، سوى مجرة ضلت كواكبها الطرق ، وكدت أقول إنني أستمتع بالوقوف في الضوء ، وكدت أسأله إن كان يدرك جيداً لماذا نحارب !! لكني رفعت يدي بالمقص . لم أكن لمست السلك بعد ، حين أزت فوق رأسي زخة الرصاص

الاولى . أمـرني بالنزول فلم أسـتـجب . التـصـقت بالخشب حاجباً رأسي أدركت فجأة أني صعدت بشكل صحيح تتابعت زخات الرصاص . ما كان هنالك شك في أنني أصبت في كل مكان سوى الرأس ، ليس لأنه محجوب بالخشب هي شهوة الحياة.

كنت واثقاً من أن الرصاص قد نهش الجسد .. لكن وصلت في تلك اللحظة الى حال صوفية هي الفناء عن الذات أو ما يشبهها . مرّ وقت طويل من الرصاص ولم أمت . ما كان ذاك مفاجئاً أو مدهشاً . الآمر هو الذي أمرني بالهبوط . كان من السهل أن أقفز أو أهبط . لكني تشبثت أكثر . فقد خطر لي أنني سأموت فور ملامسة الأرض . وسينهشني ألم

الرصاصات التي أصابتني . وقد يصاب الرأس . وقد أموت برصاصة واحدة في أدنى وتر في الجسد . تساءلت فجأة : إذا كان الأمر صعباً إلى هذا الحد لأننا غير قادرين على إسكات الرصاص المقابل ، فلماذا لا نستبدل السلك بواحد آخر يحمل الضوء ؟؟؟؟ بدا لي الأمر سخيفاً تماماً ، لكني قطعت السلك بضربة واحدة فهوى ، ثم قفزت بعده .

السـيدة

مطفأة كانت أضواء منزلنا في ذلك المساء .

تمددنا جميعاً – ثمانية أكبرهم أمي وأنا – في الصالة المتوسطة . جدرانها خضراء كالحة . تسلخت في مواضع متفرقة ، فبان ذاك اللون الأصفر المجدور الذي يذكر بالموت ، وتكونت في مواضع أخرى أشكال عجيبة : ثور بقرن في الخاصرة ، جمجمة ضاحكة ، رضيع في قمامة يشبه جنزير دبابة أو شيئاً مشابهاً وجوه كثيرة ، أهمها ذلك الوجه في صدر الصالة ؛ قالت أمي إنه يشبه وجه أبي ، وكانت تحاول الإثبات وهي تلح : حدقوا إلى الأنف وبين العينين، قالت أختي

الكبرى : إنه يشبه وجه الداية جارتنا ، وقلت أنا : من الزاوية اليسرى وجه ممثل شهير ، من الزاوية اليمنى وجه إمام المسجد في حيّنا . أما الأنف والعينان فلوجهٍ ذئبي .

قال أخي التالي ضاحكاً : من اليسرى وجه راقصة أراها في معظم أفلام اليوم . من اليمنى وجه مصارع أمريكي شرس .

كان الحر نهارياً في تلك الليلة . فتحنا الشبابيك جميعها ، ولأننا نسكن قرب السيل الوسخ ، فقد حرصنا منذ اليوم الأول ، على تثبيت الشبك المعدني الدقيق متراساً ضد الذباب والبعوض والزواحف التي يلذ لها المجيء من النوافذ . يصعب النوم في حر مثل ذاك ، يصعب حتى تبدو الأفكار جياداً جامحة في

برية لا تحد . لكن شخيراً علا قبل انتصاف الليل ، تبعه همس ضاحك بين الأخوين الأصغرين ، وقهقهة مكتومة من إحدى البنات ، وشعلة عود كبريت ، خرجت إثرها زفرة أخي (العضلنجي) صاحب الراقصة ، بيسر عرفنا أن الشخير يخص أمي ، تبعتها أخواتي الثلاث إلى النوم ، وظلت الكبرى صاحبة الداية . عرقت أنها يقظة من تأففها بين حين وأخر " الحر المجنون " تقول . لكني تذكرت زوجها الذي جاءها بضرة للإنجاب .

كنت في صمتي أترقب نسمة شاردة ، دفقة ريح تفلت من قطيعها ، تتوه فتعبر بيتنا أو حارتنا . ربما اقترب الفجر وأختي الكبرى يقظة معي ، وتعرف أني يقظ لأن سجائري في سباق دائم . قلت أخيراً بهمس

مرتفع حتى تسمعني في الجانب الأخر :- لو تصنعين لي فنجان قهوة ؟

قالت بصوت لم تفلح في كبح إيقاعه السريع : جاء دور القهوة ؟ أحرقتنا بالسجائر .

وزفرت .

قلت بهدوء :- النوافذ مفتوحة .

قالت بنفسٍ هادىء بعض الشيء :- واللّه لو طار السقف لما تحرك الهواء .

صمتت ثم أضافت بحزن خجول :- ماذا لو كان هنا طفل رضيع ؟

وأحدثت جلبة مفاجئة ، ثم أطلقت شتيمة بحروف صلبة : - يلعن أبوكِ .

قلت فوراً : من ؟

قالت بعصبية : بعوضة .

– لا يمكن ... !!

– أطْرشتني

أكدت وتذكرت أني سمعت لطمة على الوجه عند الجلبة ، ولكني تساءلت ببلاهة :

– كيف جاءت ؟ من أين ؟

ولم تمهلني (السيدة) ، أزّت بمحاذاة أذني فتشنج جسدي .

قلت :

– أشعلي النور .

شعّ مرتين أو ثلاثاً ، قبل أن ينتشر حليبياً ساكناً

كالهواء الساخن .

تناولتُ كتاباً لم أفتحه الا قليلاً ذلك المساء ، وراحت عيناي تجوبان الصالة ، اعتدلت أختي ، وضعتْ في حضنها وسادة صغيرة ، وقبضتْ بيديها على قرنيها المتقاربين .

فجأة ارتفعت وسادتها وتهاوت بيأس ، قالت خائبة

– راحت .

وكانت عيناها تتقافزان بسرعة ، قالت بهدوء حذر:

– على وجه سائد .

رفعت جسدي ونظرت ، كانت السيدة منتصبة ، على صفحة خده الأحمر .

دهشت لهيئتها، نبهتني ضحكة أختي ، وهي تقول:

ضحكت كي أطمئنه ، اشتد وجهه أكثر وهو يراني ضاحكاً ، ويبدو أنه كان واثقاً أنني ما أيقظته إلا لأمر مهم ، فخاب ، تمتم ساخطاً :

– خير يا طير ؟

ومد يده باسترخاء إلى وجهه ، متحمساً مكان السيدة ، قلت بهدوء .

– كما ترى ، كانت على وجهك ، فأيقظتك حتى أقتلها .

ضيق عينيه وقال بدهشة :–

– توقظني .. لتقتلها ؟

– نعم .

رفع صوته قائلاً :–

– تعرف أين الدسم .

وكانت تعني عضلات أخي ، ذاك السائد صاحب الراقصة .. سألته مرة عن أسباب عافيته المميزة ، فقال إنه صاحب شهية جامحة لكل شيء ، وأضاف أنه يدلل نفسه ، قلت لأختي بحذر :

– كيف أقتلها ؟

– بكفك .

ضحكت من أنفي ، وقد تخيلته قافزاً كالمجنون .

فكرت أن أوقظه ، كان علي أن أفعل ذلك ، حتى يكون مستعداً للطمة صغيرة ، أو يفعل ذلك بنفسه .

لكزته بهدوء ، مرة واثنتين وعشراً ، أخيراً فتح عينيه البنيتين ، حدق إلى وجهي بتساؤل ناعس ،

– دمي أو دمك ؟

فاجأني ، قلت :

– ربما أشفقت عليك ، لكن المهم أنني أريد قتلها كي لا تفعل ذلك لي .

قال وهو يستدير :

– استيقظ أنت حين تحط على وجهك و اضربها .

عادت إلى وجهه ، لم يتحرك ، تساءلت في نفسي إن كان قد غفا بهذه السرعة .

همست إليه .

– عادت إليك .

صرخ دون أن يتحرك .

– عارف

ولم تطر كدت أهوي على وجهه ، لكني خشيت من شجار مؤكد ، غضبت وأدركت لماذا هو عضلنجي ، قلت :

– هل لك جلد حرذون ؟

قال بهدوء ضعيف :

– الا تعرف ؟

– لا .

وهوت كفّي على وجهه ، قفز واقفاً ، وقفت في مواجهته ، ضاحكاً في نفسي من نحولي ، وضحكت أختي .

هدأ قليلاً وعاد إلى الأرض ، لكن أمي وواحدة من أخواتي استيقظتا .

سألتْ أمي بجزع عما يحدث ، ضحكت وأنا أخبرها أن بعوضة حقيرة هلكت ، عادتا إلى النوم بعد أن شربتا كثيراً من الماء .

ساد السكون ، فرحاً كنت ، فراح جسدي يسترخي ، أطفأت عقب سيجارتي ، أطفأت النور ، أغمضت عيني فأزت ، كأنهما مرتبطتان معاً بشكل آلي ، أعني إغماض العينين والأزيز ، دهمتني خيبة مرة ، أعرف لسعتها الحادة ، كما أنني أعاني من الأنيميا برغم أقراص الحديد والفيتامينات ، قلت بصوت عال :

– وبعدين ؟

ردت أختي :

– عادت ؟

– عادت !!

ضحكت أختي بخجل وأشعلت النور من جديد ، قالت :

– هي نفسها ؟

صرخت بانفعال !

– وهل أخذت نمرتها لأعرف ؟

ضحكت أختي .

هدرت السيدة ، اعتدلت ، تابعتها عيناي حتى حطت على وجه أخي الأصغر ، قليلاً فالثاني ، قليلاً فإحدى البنات ، فالثانية ، فالثالثة ، فالأم ، ثم على وجه العضلنجي وأقامت هناك ...

ماذا كان عليّ أن أفعل في تلك اللحظة ؟

ارتفع صوت المؤذن ، فحدقت إليها ، لم تطر قلت لأختي : إن السيدة كافرة لا تخشى اللّه .

لكنها طارت في اللحظة نفسها ، قالت أختي بنكهة انتصار :

– طبعاً ، قال المؤذن : أعوذ بالله من الشيطان الرجيـــم .

– لكنها ستعود

– مستحيل

– كيف ؟ ليس هنالك منفذ تخرج منه

– وكيف جاءت ؟

– لا أدري ، ربما كانت هنا من قبل ، ربما تسللت

قبل إغلاق الباب .

– المهم أنها لن تعود ، حتى تنتهي الصلاة على الأقل .

وعادت ، حاولتْ الإغارة على وجهها بالتحديد ، قالت ساخطة : لا صلاة ولا صوم لا بد من النوم !

– كيف ؟

– مثل الناس ؟

– كيف يفعلون ؟

– يغلقون عيونهم ، يرون ألوان قوس قزح ، يفكرون في ماضيهم ومستقبلهم ، ثم يستيقظون بعد عدة ساعات .

– بماذا تفكرين أنت عند النوم ؟

- أشياء كثيرة

- مثلاً ؟

- يعني ، لو أُنجب ولداً !

- هل بالضرورة ولد ؟

- ليس ضرورياً الآن ، أما إذا حملت فالأفضل أن يكون ولداً .

- وإذا جاءت بنت ؟

- يا سيدي ، (لما بيجي الصبي بنصلي عا لنبي) .

- وإذا لم يجيء ؟

- اللهم صلِّ على سيدنا محمد .

كنت قد نسيت السيدة أثناء الحديث ، وتملكتني رغبة في المتابعة ، يستهويني الكشف عن مخزون

الأدمغة ، عوالم غريبة ، أفكار مدهشة ، لكن لعنتها فاجأتني ، ضحكتُ بصوت عالٍ ، رفعت أمي رأسها وهي تتمتم .

– له . له . له . حرام عليكم .

ثم نهضت ، توضأت ، أقامت الصلاة ، كانت البعوضة تطوف على الوجوه .

حطت على وجهي وفي اللحظة نفسها طردتها أختي عن وجهها .

قلت :

– هي عندي !

– بل عندي !

– مستحيل !

– لسعتني !

أيقنّا أنهما اثنتان ، حطتا مرة أخرى على وجهينا، نفضت إحدى البنات وجهها ، تبعتها الاثنتان ، ثم الأخوان الصغيران ، كان الواحد منهم ينفض وجهه ويهمد ، فعلوا ذلك كل بمفرده في بادىء الأمر ، ثم جميعاً في لحظة واحدة واستيقظوا ، ظل ذاك السائد يشخر بشكل " فاتن جداً " – هكذا سيقول لو يسمعه– وأمي تصلي . حركت يديها حركات متباينة لا تنتمي للصلاة ، كانت البعوضة تسرق شيئاً من دمها بين لسعة وأخرى . لكن أمي تابعت صلاتها حتى انتهت ، جحظت عيوننا جميعاً ونحن نحاول رؤية السيدة نحس بها ونسمعها معاً في لحظة واحدة ، نحرك أيدينا كالعمي وقوفاً وقعوداً وعلى جُنوبنا .

أيقظت العضلنجي فلم يعترض أحد منهم ، وهم يمسكون بالدفاتر والوسائد ، وقبضت واحدة من البنات على مشط كبير أفقم .

صاح الصاحي حديثاً وهو يفتح عينيه :

– البعوضة ؟

وكانت تقف على وجهه في ثقة غير منقوصة ، دهشنا لرؤيتها بوضوح ، صرخت في وجهه :

– ألا تحس بها ؟

وضربت الهواء القريب من وجهه بالكتاب ، لم يجب

زفر وعبر إحدى الغرف الثلاث ، وهي على وجهه ، أغلق الباب ، سمعناه يغلق النافذتين بعصبية ، ثم خمد . سألتهم إن كان سينام في الغرفة والنافذتين

متروستان والباب . ضحكوا ، ونفشت إحدى البنات صدرها تقليداً له ، ألقيتُ بالكتاب أرضاً وتجمدت تماماً .

أخيراً قلت جاداً :

– هو الذي (يطمعها فينا) !!

ردت إحداهنّ ضاحكة :

– وهل هي تفهم :

قلت كالسابق :

– طبعاً وأكثر منا .

أضافت الكبرى :

– فعلاً ، كيف ستذهب وهي على وجهه في سلام ؟

خرج في تلك اللحظة ، صرخ بانفعال :

– اطردوني ..

فاجأني بإستفزازه الجديد قلت وأنا أكتم حنقي :

– إما أو ؟

كنت أعنيـــهـــا تمامـــاً ، لكني أرجـــأت ذلك للّيلة القادمة!! .

الجـواد البـرّي

فجأة .. لا ، ما كان ذلك مفاجئاً !

في تلك الغابة الملونة ، الغابة التي على أشجارها تنكسر الشمس ، الغابة التي ... ما لنا وذاك ؟ لقد انتهى كل شيء ، لم تعد هنالك درب أشقها بجسدي الفتي ، لم يعد هنالك مطر صاف كالضوء ولا هواء شتوي دافيء ، وتلاشى بخار العشب الراقص ، ورائحة الأرض الغامضة .

ثمة أشياء كثيرة وغريبة الآن ، وأشياء باردة لا أعني الثلج ! فهو على عجل يموت هنا ، يذبحه أي شيء على سطوح البنايات العالية ، والأرصفة ، يتكوم

خوفاً في الزواية الضيقة ، يلملم نفسه هرباً من مجرفة أو يدٍ وسخة ، هو بلا أصدقاء هنا ، مثل أولئك في الغابة الملونة ، حيث كنت أنا .. قوياً وحاراً أركض في أي اتجاه ، تفر بضع قطرات من دمي بفعل شوكة مشاغبة . أركض حتى يصعب أن أتنفس . أغرق في عرقي الدافيء ، أستلقي على العشب ، تداعبني شظايا الشمس المتناثرة بين الأشجار . أهب ثانية وأواصل الركض . تحمحم فرس فأصهل ، تعبر الفرس قدامي كالومض ، وجنوناً أتبعها .. تحس بأنفاسي اللافحة على جسدها الرشيق ، فتركلني .

أحس بألم جميل فتعوي الرغبة وتجوح . يغمرنا العرق ولا نتعب . نسبح في النشوة البرية الطازجة . أستلقي ثانية على العشب ، وأنهض بعد حين ، أجد

نفسي على حافة نهر بكر . أشرب في هدوء . وأستلقي حين يهل المساء في أي مكان .. لا كما يريد لي الآخرون الآن !! لا أدري كيف أصبحت هكذا ! كيف يقودني شخص في الوقت الذي يريد ، وإلى حيث يشاء !! يطعمني ، ثم يعتلي صهوتي كيفما اتفق يقيدني بحبل معقود على قطعة من الحديد في فمي ! يشده ويرخيه .. أركض . يشده ويرخيه . أحس بألم حاد يسري في جسدي . أركض ، يشد فخذيه وساقيه حول جذعي . أركض ، أنتبه إلى جياد كثيرة حولي تسبح في العرق ، ورجال فوقها ينحنون . يرفسونها بأحذية الحديد في أقدامهم . أحاول البكاء فأحس بوخزة في الصدر . أعود متعباً إلى الحظيرة في المساء ، أرى فرساً إلى جانبي تأكل في وهن . لم

تحمحم ولم أصهل . فجأة رأيتها تتكوم على الأرض مثل كيس رمل . ثم جاء رجلان . أمسكا بها وخرجا ،إنتظرتها طيلة الليل علّني أواسيها قليلاً ، ولم تعد ، جاء رجل في الصباح يقود فرساً تبدو عليها آثار التعب ، رغم فتوتها التي لم تغِبْ تماماً بعد . ربطها إلى جانبي ، حمحمت قليلاً حين رأتني ، رغبتُ في الصهيل ، ولكن الرغبة فرّت بذعر . وحلّت مكانها الرغبة في النوم .. ونمتُ .

صحن اللُّقى

.. كما تشائين .. سنخرج .. ليس هناك مكان محدد .. سنمشي ونرى ، فشمس الربيع تغري بكل شيء ، حتى بالنوم .

لو أن الشاب الملتحي في المقعد الخلفي ، هو الذي انتقل إلى المقعد الأمامي ، لصعدنا في الخلف إلى جوار المرأة العجوز . لكن الشاب الجالس في الأمام كان أسرع .. فما أن توقفت السيارة حتى فتح الباب وخرج ، ثم صعد إلى جوار الشاب الملتحي والمرأة العجوز . وصعدنا نحن إلى جوار السائق ..

ولأنكِ أنت التي تجلسين قرب النافذة ، فقد حدّق

السائق إلى وجهك بلا حرج ، ورجاك أن تربطي الحزام .. كان ذلك صعباً إلى حد ما .. فالحزام يتلوى عادة تحت الاقدام . ولذا فإنه وسخ كما ينبغي له أن يكون وهو في وضع كهذا !! ثم إن القفل في منتصف المقعد ! وقد أحسست به فور جلوسي .

كان عليك أن تمسحيه بمنديل ورقي . وكان عليّ النهوض قليلاً ، والابتعاد بجسدي نحو السائق . وأخيراً تم كل شيء .. لكني عجبت لمسألة الحزام الوسخ ، وكيف أن السائق لا يتذمر !!

نظرتُ إلى تلك اللائحة المثبتة على التابلو النظيف ، وقرأت الكلمات الحمر .. (الرجاء ربط الحزام) .

سألته عن حكاية اللائحة فقال :

– أتريدني أن أقول لكل واحد عند صعوده وهبوطه ما جاء هنا ؟

وأشار إليها بسبابته اليمنى دون أن يطلق المقود من قبضته !

أشرت – مداعباً – إلى مائدة الكاسيت .. ودعمت إشارتي بأمثلة شائعة ! وقلت أخيراً :

– إن الكاسيت لا ينسى ، ولا يمل .. ألم تسمعه يلعلع في الباصات الصغيرة ؟ (صابون) و (فاين) و (حفاظات الأطفال) و (ورق التواليت) و (الشامبو) و (أدوية الغسيل والجلي) و (منظفات الحمامات) وغيرها ويبدو أن هذه ال (غيرها) دفعت زوجتي لاضافة (البيبي فاين) و (الفونيك) .

رد السائق بحياد :

- المسجل ممنوع ..

وتوقف معلناً وصولنا ، فتذكرت المقهى الصغيّر ، الذي خطر لي أن نمر عليه قبل وصولنا ! كنت فكرت في ذلك فور جلوسنا إلى جوار السائق ! ربما كانت ملامح السائق شبيهة بملامح " أبو الريم " ! مضى عام على رؤيتي له آخر مرة ، فخطر لي أن أرى الدائرة التي تحفرها السنة على الوجه ! أليس الوجه كساق الشجرة ؟

* * * *

هذه مشكلتها الدائمة !!

ما أن تدخل البيت ، حتى تقذف بالحقيبة إلى أقرب

مقعد . وحينها لا تجد المحتويات حرجاً في الانعتاق والتدحرج ، والاختفاء .. لم يكن ذلك مزعجاً في البداية . لكن أسئلتها الدائمة عن بعض أشيائها ، جعلتني أشير عليها بإغلاق الحقيبة كلما رأيتها ملقاة غير مغلقة على مقعد ما .. وحين تهم بالخروج من البيت .. لكن فكرة الصحن أراحتني من الأسئلة !!

كنت وضعته على طاولة المطبخ ، ورحت ألقي فيه كل ما ألقاه من محتويات الحقيبة .. أقلام الروج ، والأمشاط ، والمفاتيح ..

ثم تطرفت بعد ذلك ، ورحت ألتقط أي مفتاح عن أي رصيف . بالإضافة الى الأمشاط ، حتى لو كان الواحد منها أفقم !

وشيئاً فشيئاً رحت ألتقط دبابيس الشعر ، وأقلام

الروج الجافة وأزرار الملابس ، الأمر الذي جعل إحدى صديقاتها تقف مبهورة ذات يوم أمام الصحن ، وتعتبره أجمل تحفة في البيت !

ولا أذكر إن كنت نبهتها قبل خروجنا إلى حكاية الحقيبة أم لا !! المهم أنني بعد أن قفزت هي إلى الرصيف ، وهممت باللحاق بها ، قمت بالتقاط علبة "كريم " صغيرة ، ولم أحاول أن أعرف إن كانت علبتها أم لا ، حتى بعد أن رأيت حقيبتها مفتوحة تتدلى من كتفها اليسرى !!

في تلك اللحظة قررت الامتناع النهائي عن تنبيهي لها ، ولتذهب الحقيبة كلها إلى جهنم !! لكن الأمر لم يتوقف هنا ، فقد لكزتني يد في كتفي ، فالتفتُ ، وأخبرني شاب أن ساعة يد سقطت من حقيبة المدام ،

وأشار إلى نقطة على الرصيف خلفنا بمترين !!

انحنيت والتقطتها .. كان زجاجها مهشماً ، وقد تناثر حولها .. ولم أعثر على أي من عقاربها !!

سألتها عن معنى وجود الساعة في الحقيبة ، فقالت إنها (تؤخر) ثلاث دقائق ونصف الدقيقة في اليوم ، وإن ضبطها من قبل الساعاتي صار ضرورياً جداً !! ثم سألتها بقهر بالغ عن بقاء الحقيبة مفتوحة ، فقالت إنها فتحتها فور جلوسنا في السيارة ، وذلك لالتقاط منديل ورقي لتنظيف الحزام !! ثم قالت إنها تلومني لأنني لم أنبهها كما اعتدت منذ أربع سنوات !

* * * *

حرّة ! أنت كذلك بالطبع ! تختارين الملابس

والألوان ! ولم يسبق لي أن أشرت إيجاباً أو سلباً حيال أي لون ! وأنا لا أعرف - أصلاً - ذلك الانسجام بين الألوان .. والعلاقات اللونية بين القميص والبنطال ، أو (التنورة) والحذاء والجوارب والحقيبة و (الآي شدو) و (الآي لاينر) و (الروج) وما إلى ذلك !! ولا أرى فرقاً في أن تكون حمّالة الصدر حمراء أو صفراء مثلاً .. أما أن تكون حمراء تحت قميص أبيض شفاف ؟؟!! صحيح أنه نهار ربيعي مشمس ، لكن قميصاً أكثر سُمكاً لن يسبب لك الموت . ولا حتى ذلك الاختناق الذي يصيبني بسبب التعليقات (الشابة) على طول الرصيف والوقت .. " أحمر يربح " !! يربح ماذا يا امرأة ؟؟ أظن أنني لمحت في عينيك شيئاً من الرضا !!

طبعاً ستشعرين بالبرد . فهو المساء الربيعي .. كدت أسألك أن تتدرعي بالذي ربحته قبل حين ، إلا أنك أعلنت عن رغبتك في العودة !!

كانت ساقاي متعبتين بعد ثلاث ساعات !! غريب!! ألم تغلقي الحقيبة عندما ألقيت بالساعة المهشمة فيها؟؟ لقد رأيتك تفعلين !! آه .. عند بائع الصحف ! ولكن ! لماذا لم تغلقيها بعد ذلك ؟ طبعاً ستوجهين لي اللوم ! يا إلهي !! لا بد لقلم الروج من الدحرجة!! لا تغضبي ، أرجوك .. لقد قذفت به من النافذة ، خذي .. لقد عثرت على واحد يبدو جديداً .. تقولين إنك فقدت واحداً ؟ مصادفة .. أعني أن تفقدي واحداً وأنا أعثر على آخر !! كان إلى جوار الساعة المهشمة .. ولم أقل لك ذلك ، لأن اللقيا فقدت قيمتها بسبب

الساعة !!! آه .. لا بد من الهاتف !! ولكن ، ألست جائعة ؟؟ .. هاي ! منذ دقائق . طبعاً كان معي، والسينما !! Love Story !! ألم أقل لك إنني سأراه مرةً ثالثة ؟؟ تصوري أنني بكيت هذه المرة أيضاً !! كان (رودني) مدهشاً ! أعني " ريان أونيل " أليس هو (رودني) في مسلسل (بيتون بليس) .

كان الطقس ممتعاً ، فتمشينا بعد ذلك ، وعرجنا على مقهى (أبو الريم) .. ليتك ترينه الآن . لقد كبر كثيراً خلال سنة هاجمته التجاعيد . يجب أن تأتي غداً لرؤية الصحن . آه صار فاتناً جداً !! قلم شفاه ليلكي .. عثر عليه في صالة السينما . وساعة غريبة عند بائع الصحف ، يبدو أن إحداهن قد فقدتها هناك. لا بد أن حقيبتها كانت مفتوحة . أنت تعرفين

ذلك النوع من النساء . تظن الواحدة أن مشيتها وهيئتها أحلى بحقيبة مُفتوحة تتدلى من الكتف . ستجيئين ها ؟ طبعاً هنا . إلى جواري ويهديك تحياته .. باي !!

* * * *

يبدو أن موت بطلة الفلم المصابة بالسرطان قد أربكني !! وربما كنت فرحاً بالقلم الذي عثرت عليه في الصالة !! وربما كانت التجاعيد في وجه (أبو الريم) قد سببت لي خيبة ما !! فقدت شهيتي تماماً . وهاجمني النعاس !! تصبحين على خير !!!!!

الرؤوس

تدحرجت الرؤوس أمامي .

كل الرؤوس التي في الشارع قفزت فجأة .

بدا الأمر مرعباً في البداية ، لكن شيئاً لم يتغير ، فقد واصلت الجثث مسيرها العادي بلا رؤوس ، وراح كل رأس ينط بين قدمي صاحبه .

بدا الأمر مضحكاً فابتسمت . وحين قهقهت أصبت بالذعر ، فقد جاء صوتي من القدمين .

خطر لي أن أعيد ترتيب الأشياء .

رحت أمسك بالرأس وأرفعه بين قدمي صاحبه ، لأضعه بين كتفي جثة أخرى ، لم يتغير شيء من

الخلف إلا القليل .

رحتُ أركض كلما وضعت رأساً على جثة جديدة . أستدير وأرى !!! لا حظت العديد من المفارقات العجيبة ، لكن هذا صار عادياً كذلك .

أمسكت بأحد الرؤوس الغريبة ، ثم وضعته بين كتفي ، وظلّ رأسي (ينط) بين قدمي .

حدقت الى نفسي في زجاج محل تجاري فصعقت... لم يكن ثمة شيء غير عادي !!!!

يحيى والأسئلة الأولى

اصطحبته ذات مساء دافىء الى العاصمة .

تلك أول مرة يستقبل فيها صدره هواء عمّان . مشينا كثيراً . تعبت . اقترحت الجلوس على رصيف أحد المقاهي ؛ لكنه ألحّ على المتابعة ، مبرراً ذلك بالشوارع والأشياء التي لم يرها من قبل . تحديداً مذ راح يكبح أرجحة توازنه فوق تراب " عوجان " الجيري

أخيراً قررت أن نجلس ، فجلسنا ، اخترت طاولة بجوار نافورة الماء الملون .

جاء النادل يحمل دفتره الصغير ، معلقاً بسمته على شفتيه ، ومن عينيه يرشح التعب .

قلت ليحيى :

– ماذا تحب أن تشرب ؟

حدق الى وجهي ، كمن يتوسل شيئاً .

ابتسمت وقلت ببطء .

– هنالك بوظة ، و ....

قاطعني كأنه وجد ذلك الشيء الذي توسله :

– بوظة ؟ ...

أعاده النادل الى حالته السابقة ، حين سأله أي نوع يريد . تدخلت بسرعة وقلت :

– بوظة " مشكل " وبرتقال .

تدخل يحيى موضحاً :

- بوظة فقط .

ضحكت وقلت :

- لي البرتقال .

اقترب بوجهه مني وهمس :

- وأنا برتقال .

ذهب النادل . انحنى يحيى الى الأمام قليلاً مرتكزاً بمرفقيه على الطاولة ، وقد وضع راحتيه الصغيرتين على خديه ، وراح ينقل عينيه بنهم بين الأكواب والماء الملون والوجوه . فجأة سألني :

- لماذا لا يوجد في الزرقاء مثل هذا ؟

لم أجب سريعاً فأضاف :

- ممنوع ؟

ارتبكت ، وأنا أحاول أن أقول شيئاً يستوعبه ، أخيراً قلت ضاحكاً :

– ربما في المستقبل . هل أعجبك ؟

ضحك بلا معنى معقول ، وحرك يديه وعينيه .

شربنا البرتقال . سألته إن كان يفضل البقاء ، فاختار الخروج ، في الطريق الى الباب ، سألني عن ثمن البرتقال . أخبرته أن الكأس بأربعين قرشاً .

قال بدهشة سنواته العشر :

– يا اللّه ... !!!

ابتسمت فأضاف :

– برتقال عادي ؟

– قلت بأسى خبأته ضحكتي :

– طبعاً

تابع باستفزاز لا يعيه :

– مثل برتقال الزرقاء ؟

– نعم . لكنهم يضعون قطعة ثلج في الكأس كما رأيت .

قال كمن يحاول إثبات شيء :

– لكن الكأس في الزرقاء بعشرة قروش . صحيح انه بلا ثلج لكنه برتقال ، ومرطبات الخروب والليمون والبرتقال بخمسة قروش عند موقف الباص . وهي مثلجة ، حتى ان أمي توصيني أن لا أشرب كل يوم حفظاً لأسناني .

كان علي أن أشرح له أشياء كثيرة ، تتعلق بالفرق

بين هذا وذاك .

حيرتني ردة فعله المتوقعة ، حين أقول إننا هنا ندفع ثمن الجلسة المريحة . وثمن الموسيقى والهواء غير المترب ، و ... استوقفت " تاكسي " وصعدنا . دخل يحيى في صمته حتى موقف سيارات الزرقاء . لم نجد سوى طابور قصير جداً ، ولا سيارة واحدة . التحقنا بالطابور القصير وهو أمامي . فجأة التفت وخرج من عباءة صمته وهمس :

– هل يسمحون لنا . أعني عائلتنا كلها بالسكن هناك ؟

– نعم ولا .

ضحك وقال :

– لا أمزح

ضحكت وقلت :

– وأنا أيضاً . يمكن أن نعثر على بيت ، ونستأجر شاحنة صغيرة لنقل الأمتعة .

قال بفرح : قل لأمي الليلة

قلتُ ضاحكاً – سأفعل . وحين تسألني عن أجرة البيت سأخبرها أنها مائتا دينار فقط .

قال بدهشة صارخة :

– شهرياً ؟

– وفي بداية الشهر ، إن وافقوا على الدفع الشهري ...

التفت ؛ ولم يعرف سؤالا عما أقول ، فتابعت :

– غالباً يطلبون أجرة عام كامل منذ اليوم الأول .

أحكم صمته عليه . أظنني كنت أعرف ما الذي يفكر فيه . حتماً ستحرقه النتيجة ، وهو يذكر اننا ندفع ثلاثين ديناراً في " عوجان " .

لكنه سألني بهدوء :

– ٢٠٠ ضرب ١٢ تساوي كم ؟

قلت معاتباً :

– ألم أقل لك أن تدع الأصفار جانباً ،

وتضرب ما تبقى ، ثم تضع الأصفار أمام الحاصل ؟

بخجل طفيف أجاب :

– بلى ، لكني نسيت، انتظر .

إنتظرت وراح يحرك أصابعه ، وقد أغمض عينيه .

قال أخيراً بثقة :

– ٢٤٠٠

– صحيح

صمت برهة ، ثم أضاف باستغراب عظيم :

– ٢٤٠٠ دينار منذ اليوم الأول ؟

فاجأني لأنني اعتقدت أن سؤاله يتعلق بالمدرسه .

لم أجب .

صعدنا في السيارة التي وقفت بعد الأولى .

ورجٌ بصمته المطبق روحي .

قلت هامساً :

– سنأتي العاصمة بين حين وآخر ..

كنت أريد إخراجه من الصمت المفجر عقله لكنه سألني :

– هل تعرفها كلها ؟

واستدرك قبل سماعي :

– آه صحيح . لقد درست فيها أربعة أعوام ، أليس كذلك ؟

قلت جاداً :

– ما الذي أعجبك بالضبط ؟

أجاب ببساطة :

– كل شيء

– مثلاً ؟

– الشوارع نظيفة . الأضواء جميلة . لا يوجد تراب ناعم أبيض . ملابس الناس نظيفة حتى السيارات . هل تصدق أنني رأيت (السيارة العجيبة) التي تجيء في التلفزيون ؟

سألته فجأة :

– هل تعرف عددالسكان في العاصمة ؟

– مليون . أنت قلت لي ذلك . أليس صحيحاً ؟

– صحيح . وتظن ، وتظن أنهم يسكنون جميعاً هناك ؟

– لا أدري . لكني حين أكبر وأشتغل ، سأسكن هناك .

– لماذا ؟

- أريد أن أمشي كل ليلة على الأرصفة ، وأشتري سيارة أقودها في الشوارع المسفلتة الواسعة ، كي أهجر بركة الطين التي أخوض فيها كل يوم الى المدرسة . هل تذكر كيف تغيبت قبل شهر لأني سقطت فيها ؟

شعرت بندم حراق لاصطحابه ، ثم راح ندمي يبرد قليلاً وأنا أسترجع وقع توسله اليومي . حين وصلنا ، دخل أمامي . عبر الصالة الصغيرة في هيئة رجل رزين ، ويداه في جيبي بنطاله ، وابتسامة مربكة تفشت في ملامحه وعينيه .

كان يتوقع أسئلة أمي وأخوتي عن التفاصيل ، لكنه خنق فرصتهن وهو يطلب من أمي أن تعد له الفراش كي ينام من التعب ، ويستيقظ باكراً في الصباح

المدرسي التالي .

ففرحت لذاك التعب .

عنقود حامض

كانوا ذاهبين الى الحرب ..

مدججين بكل ما يلزم ، يغنون ، ويبتسمون للتحيات التي يرشقهم بها الآخرون !

كانوا ذاهبين الى الحرب رجالاً أقوياء في خطوهم، مزهوين بشجاعتهم وهي تشع من العيون ، أينما اتجهوا !

كانوا ذاهبين الى الحرب ، على الرغم من أن أحداً لم يسمع باعتداء على الوطن ، أو بحشود عسكرية من الخارج !

ربما كان هذا هو ما يدفعهم للغناء !! وربما لهذا

أيضاً لم يشعر الناس بالخوف كما ينبغي !!

لكن تلك المرأة كانت خائفة !!

كانوا ذاهبين ..

فالصدور بلا أوسمة . والملابس العسكرية نظيفة . والهيآت جميلة .. ذلك يعني أن الانتصار حتمي .. والناس تحب الانتصارات في الحرب !!!

كان من الضروري أن يعبروا المدينة ، وأن تدق الخطى شوارعهم واحداً واحداً . لتكون وجوه الأمهات والأطفال آخر ما يرون . وآخر ما يغلقون عليه الذاكرة!! هبّت الإذاعة الوطنية فجأة ، وضجّت بالموسيقى الصاخبة ، فلا يعقل أن يذهب الجنود إلى الحرب دون إذاعةٍ وطنية ، وموسيقى صاخبة !!

قبل حلول الظلام في البيوت الواطئة ، عند أقصى حدود الحي الجنوبي ، استدارت المرأة الخائفة . رفعت ابنتها عالياً . ضمّتها بقوة إلى صدرها ، وعبرت إلى الداخل .

استيقظت في الليل على صوت العاصفة . لكنها عادت الى النوم ، لتصحو على هدوء صباحي في الخارج .

فتحت الباب ، فوقع بصرها على فراغ حارق ، خلّفه العنقود الأول قبل نضوجه بوقت قصير !!

كان وحيداً على الدالية .. رعته منذ ولادته .. خطر لها من قبل أن تلمسه .. تداعبه بأصابعها وشفتيها

كما تداعب الصغيرةَ الوحيدة . وكما كان يفعل الرجل الغائب ، حين يمد يديه الى رأسها هي ، ثم يخفي أصابعه في شعرها !!

شعرت بأسى لم تعرفه من قبل ..

كان عليها في النهارات السابقة ، أن تلجم روحها، كي لا تنهار أمام توسلات الصغيرة ، وبكائها من أجل حبة واحدة .. هكذا كان الحزن يجيء بالحزن !! فحين كانت تقول لها إن (بابا) سيقطف العنقود لها حين يعود ، كانت الصغيرة توغل في البكاء ، وتسأل بكلمات غير ناضجة تماماً :

– وين راح بابا ؟؟

لم يكن ذلك سهلاً .. فماذا يعني السجن للصغيرة؟

وماذا تعني لها رغبة الأم في أن يكون الأب أول من يلمس العنقود البكر ، على الدالية التي زرعها قبل عامين ؟

كانت ذراعه مرفوعة منذ حين ، وأصابعها تتحسس في حذر سرير العنقود ، قبل أن تلتفت فجأة الى الخلف ، لترى الصغيرة تمضغ حبة حامضة ، وقد أحكمت قبضتها الصغيرة على بضع حبات مجرحة ومتربة !!

انحنت ، رفعتها عالياً ، ضمتها الى صدرها بقوةٍ ونشقت !!

عبرت الى الداخل ، ثم خطفت نفسها فجأة الى الباب الخارجي ، بعد أن اهتزت الأرض تحت خطو الجنود ..

كانوا عائدين من الحرب ..

مدججين بكل ما يليق بالنصر ، ملامح الرجولة في أوج اكتمالها . وهراوات عليها دم متخثر .

كانوا عائدين ...

رجالاً أقوياء في خطوهم . وصدورهم تتهيأ للأوسمة .

وكان من الضروري أن يعبروا المدينة . أن تدق الخطى شوارعها واحداً واحداً . لتكون وجوه الأمهات والأطفال أول من يرى الانتصار الجميل .. فالناس يحبون الانتصارات في الحرب !!

هبت الإذاعة الوطنية ، وضجت بأغنيات النصر .. فلا يُعقل أن يعود الجنود بالنصر من دون أغنيات !!

اشتد بكاؤها وعلا ..

انحنت ..

رفعت الصغيرة الى صدرها ، وعبرت الى الداخل..

نظرت الى عينيها الصغيرتين وقالت بأسى :

- ستقطفين العنقود الأول في العام القادم !!

دهشت وهي تسمع ابنتها تقول في ثقة وهدوء غريبين :

- لكن أبي هو الذي سيقطف العنقود حين يعود !!

شدّتها بقوةٍ إلى صدرها ، وهمستْ :

- ويـن راح بابا !!!

يصدر حديثاً

١ ـ بيادر للحلم يا سنابل/ شعر	عطاف جانم
٢ ـ عنقود حامض/ قصص	يوسف ضمرة
٣ ـ تيه ونار/ شعر	عبدالرحيم عمر
٤ ـ رحلة الأحلام/ مسرحية للأطفال	فتحي عبدالرحمن
٥ ـ مفارقات بين عين الانسان وعيون الحيوانات/ للفتيان	د. سرى سبع العيش
٦ ـ رباعيات ابن السبعين/ شعر	محمد منصور
٧ ـ هكذا عرفتهم/ ذكريات	جعفر الخليلي
٨ ـ التجربة المسرحية الأردنية من (١٩١٨ـ١٩٨٠)	د. صادق خريوش

صدر للمؤلف

١ ـ العربات ـ قصص ـ ١٩٧٩م.
٢ ـ نجمة والأشجار ـ قصص ـ ١٩٨٠م.
٣ ـ المكاتيب لا تصل أمي ـ قصص ـ ١٩٨٢م.
٤ ـ اليوم الثالث في الغياب ـ قصص ـ ١٩٨٣م.
٥ ـ حكايات عن طيور البطريق ـ قصص مترجمة للأطفال ـ ١٩٨٤م.
٦ ـ ذلك المساء ـ قصص ـ ١٩٨٥م.
٧ ـ مدارات لكوكب وحيد ـ قصص ـ ١٩٨٨م.
٨ ـ سحب الفوضى ـ رواية ـ ١٩٩١م.

First Edition
All Rights Reserved For The Ministry Of Culture
P.O.Box 6140 - Tel. 636391
AMMAN - The Hashemite Kingdom Of Jordan

PUBLICATIONS OF THE MINISTRY OF CULTURE

OnKood Hamed

(ABUNCH OF SOUR GRAPES)

STORIES

BY

YOUSEF DAMRAH

THE HASHEMITE KINGDOM OF HORDAN -

AMMAN 1993

عنقود حامض

بلغة مؤثرة تجعلك تعيش مع الحدث وتحس كأنه من صوغك أنت، فتستنشق الرائحة، وتطل على النوافذ وتشعر بحموضة العنقود.. بهذه اللغة التي تلامس شغاف القلب وتوقظ الأحاسيس والمشاعر الدفينة، وبتلك الجرأة في التعبير عما نريد البوح به ونخشى ذكره، يطل علينا يوسف ضمرة بعنقوده الحامض ليحطم الحواجز ويمزق الأغلفة والأستار التي نصطنعها حول النفس وليعيدها إلى خلقتها الأولى صافية نقية، بلا رياء أو مداهنة.

منشورات وزارة الثقافة هاتف [illegible] - ص ب [illegible] - عمان - المملكة الأردنية الهاشمية